

نشرة دعوية تُعنى بالتراث
والمخطوط والسِيَر والتَّاريخ

التحرير:
أبو محمد سمير سراد

للتواصل:
الهاتف:
(+213)557658006
البريد الإلكتروني:
aboumohamedsamir@gmail.com
الموقع:
www.ilmmasabih.com

تجدون في هذا العدد

العدد الخامس، رجب ١٤٤٠هـ | فيفري ٢٠١٩م

اللَّهُمَّ ارْحَمْ مَنْ عَلَّمَنَا!

يَكفِي مَن كانَ يُعلِّمُ النَّاسَ الخيرَ، ويَهدِيهم إليهِ، ويَدُلُّهم عليهِ، ويُمحِّضُ لهم النُّصحَ، وَيُوصِّلُ إليهم النَّفع، وَيَحمِلُهم على الصَّالِح، في دينهم ودنياهُم، مِمَّا يَشمَلُهُ لفظُ «الخير»؛ يَكفيهِ هذه المُكافأة الرَّبَّانيَّة، الَّتي حَمَلَتْهَا البِشارة النَّبويَّة، «**إِنَّ اللهَ ﷻ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ؛ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**»[١]، وكما قال الشَّارِح المُنَاوِي: «**لاَ رُتبَةَ فوقَ رُتبةِ مَن يَشتغِلُ الملائكةُ وجميعُ الخَلْقِ بِالاِستِغفارِ والدُّعَاءِ لَهُ**»[٢]اهـ. وإِنَّهُ مَعَ ذلكَ لَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ البَشَر أَن يَستَغفِرُوا ويَدْعُوا لِمَن كانَ ولَم يَزَل يُعلِّمُهُم الخيرَ، ومَتَى أَخَلُّوا بِذلكَ وغفَلُوا عَنهُ، كَانُوا مُضَيِّعِينَ لحقِّ مَن لهُ حقٌّ عليهِم، خَلِيقٌ بأَن يُلَامُوا عليهِ، ويُذَمُّوا لأجلِه، وَيلتحقَ بهم العار، ويُصنَّفُوا في مَن يجحَدُ الفضل، ويُنكِرُ المعروف، وَيَكفرُ الإِحسان، وَ«**مَن لَا يَشكُرُ النَّاسَ لَا يَشكُرُ اللهَ!**».

ومِن سِيرةِ أهلِ الفضل مِن النَّاس وَالصَّالحين مِن عباد الله: الدُّعاءُ لِمَن تعلَّمُوا مِنهُ؛ كان أَسَد بن الفُرات إِذا ذَكرَ مُعَلِّمَهُ -عليَّ بن زياد-، يقولُ: «**إِنِّي لأَدعُو لَهُ معَ والِدِي**». وفي روايةٍ: «**إِنِّي لأَدْعُو في أَدبَارِ صلَاتِي لِمُعلِّمِيّ، وأَبدَأُ بِعليِّ بن زياد؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَن تعلَّمتُ مِنهُ العِلم**»[٣].

ويَقبُحُ بالنَّاسِ أن يَذْكُروا مَن أَفادَهُم ولَا يَذكُرُونَهُ بِشُكرٍ وَثناء، وَلَا يدعُونَ وَلَا يترحَّمُونَ - قُبْحَ جاحِدِ إِحسانٍ وناكِرِ فضلٍ!؛ رَوَى ابن بَشْكوَال في ترجمة القاضي عياض عنهُ، عن أَبي علي الصدفي: سمعتُ الإمام أبا محمدٍ [رزق الله] التميمي ببغداد يقول: «**مَا لَكُم تَأخُذُونَ العِلْمَ عَنَّا، وَتَستَفِيدُونَهُ مِنَّا، ثُمَّ لَا تَتَرَحَّمُونَ عَلَينَا؟!**»، «**يَقْبُحُ بِكُم أَنْ تَستَفِيدُوا مِنَّا، ثُمَّ تَذْكُرُونَا، فَلَا تَتَرَحَّمُوا عَلَيْنَا!**». لَم يَزِد هذا الإمام على أَن طالَبَ وَذكَّرَ بِحَقِّهِ على تَلَامِيذِهِ والآخِذينَ عَنه والمُستفيدِينَ مِنهُ. قال ابن بَشْكوَال: «**فَرحِمَ اللهُ جميعَ مَن أَخَذْنَا عَنهُ مِن شُيُوخِنَا [وغيرِهم]، وَغفَرَ لَهُمْ**»[٤].

وَأَقُولُ مُقتَدِيًا: رَحِمَ اللهُ جميعَ مَن أَخَذْنَا عَنهُ مِن شُيُوخِنَا وغيرِهِم، وَغفَرَ لَهُم.

أبو محمد سمير مراد

[١] [رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وهُو صحيحٌ. «صحيح الجامع الصغير»(رقم ٤٢١٣)].

[٢] [«التَّيسير»(٢/ ٣٣٠)].

[٣] [ترتيب المدارك للقاضي عياض(١/ ١٨٦)، ط. الكتب العلمية].

[٤] [التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد (ص٦٧)، وَالصِّلة (ص٦٦١- الأبياري)، وَتاريخ قضاة الأندلس (ص١٠١- دار الآفاق الجديدة)، وسِيَر أعلام النُّبلاء (١٨/ ٦١٣)].

فِرْيَةُ الوَهَّابِيَّة (٠٥)

• الشَّيخ: أبو يَعْلَى الزَّواوي

❍ كتب الشَّيخ أبو يَعْلَى الزَّواوي رَحِمَهُ اللهُ في مجلَّة «الشِّهاب»[١] مقالةً في الرَّدِّ على المُتَصوِّفَة بِعُنوان: «مراتب العبادة ثلاث... »، جاء فيها:

«...وغير ذلك مِن تَسْلِيمِ أقوالٍ وأَفعالٍ ليست مِن عَمَلِ السَّلَف، فلَا دَليلَ عليها لَا مِن كتابٍ ولَا مِن سُنَّةٍ؛ كبِنَاء القُبَب والقُبُور، وزيارتها للطَّوَاف بها، وإِسناد ما يُصِيبُ الزَّائِرَ مِن المَكَارِه والمَطالِب إليها، وَالحالُ أنَّ ذلك مِن الإِشْرَاك، وليس بشيءٍ عندَ الأئمَّة الأربعة المقلَّدين (بالفتح).

وقال صاحب «المختصر» الذي به الفتوى في مذهبِ مالكٍ: «و[كُرِهَ] **تَطْيِينُ قَبْرٍ**[٢] **أَوْ تَبْيِيضُهُ**[٣] **وَبِنَاءٌ عَلَيْهِ**[٤] **أَوْ تَحْوِيزٌ**[٥] **وَإِنْ بُوهِيَ بِهِ حَرُمَ**».

وقال الدردير[٦] هنا: «ووَجَبَ هَدْمُهُ. وَمِن الضَّلال المُجْمَع عليه أنَّ كثيرًا مِن الأغنياء يَبْنُونَ بقَرافَة مصر أَسْبِلَةً ومدارس ومساجد... إلخ قوله: [وهذه الخرافات]، ويَزعمون أنَّهم فعلوا الخيرات، كلَّا ما فعلوا إلَّا المُهلِكَات»[٧]اهـ.

قلتُ: مَرْحَى، وقد أصاب الدردير هنا، **ثمَّ إنْ تَعْجَب أيُّها الواقف على كلامنا هذا، فعجبٌ أقوالُهم -أعني: المالكية- إنَّ الوهَّابيِّين يَهدمون القُبَب والقبور المزخرفة المُطَاف بها، ويَنتقِدُون ذلك أشدَّ الاِنتقاد، وهُوَ مَذهبُهُم المالكيُّ مَحْضٌ، فلْيَنتقدوا مَالِكَهم قبلُ، ثمَّ أحمد بن حنبل إمام السُّنَّة**، إنِ الوهَّابيُّون إلَّا حنابلة... فعَلَامَ الاِنتقاد والطَّعن في المذاهب المُجْمَع عليها؟ أليس ذلك جهلًا فادِحًا وطعنًا في الدِّين وتفريقًا بين المسلمين؟ وبعبارةٍ أخرى: إنَّ الوهابيِّين حنابلة، **ولا نَعْلَمُ بمذهبٍ وهَّابيٍّ، وإنَّ ذلك نَبْزٌ ونَبْذٌ مِنَ المُتَنَطِّعِين، بل المُتَوَغِّلِينَ في البدع والخرافات**، فَقَلَبُوا الحقيقة كما تقدَّم للشَّيخ الدرديري. ثمَّ بعد هذا كلِّه يَتشدَّقُون بكلماتِ التَّفريق؛ يَنْتَقِدُون مَن يُفَرِّق المسلمين وبين المسلمين...، ولكن الحنابلة الَّذين يَعملون ما بِهِ الفَتوى في مذهب مالك وهَّابِيُّون، لا يُزَخْرِفُون القُبور ولَا يَبْنُونَ عليها القُبَب والمساجد؛ اللَّهمَّ إنَّ مَالِكًا وسائر متَّبِعِيهِ ومُقتدي بِهِ بُرَءَاءُ مِن أَعمالِ هؤلاء الطَّعَّانين في الحقِّ وفي دينهم، وهُم لا يَشعُرون أو يَشعُرون وهُم مُتعمِّدون، ثمَّ بعدَ هذا كُلِّهِ تجدُ هؤلاءِ المتصوِّفةَ الَّذين دَرَسُوا مسائل قليلة يَتَشدَّقون، بقَولِ صاحب الجوهرة:

فتَابِـعِ الصَّالِـحَ مِمَّـن سَـلَفَ
وجَانِـبِ البِدْعَـةَ مِمَّـنْ خَلَـفْ»

---

[١] [المجلد التاسع، الجزء الخامس، غرة ذي الحجة١٣٥١هـ - أبريل١٩٣٣م، (ص:١٩٧-١٩٨)].

[٢] قال الدردير: أي تلبيسه بالطين.

[٣] قال الدردير: (أو تبييضه) بالجير.

[٤] قال الدردير: أي على القبر كقبة أو بيت أو مدرسة.

[٥] قال الدردير: (أو تحويز) عليه بأن يبنى حوله حيطان تحدق به...

[٦] هو أبو البركات: أحمد بن محمد العدوي الشهير بالدردير، توفي سنة (١٢٠١هـ).

[٧] «شرح الدردير/ مع حاشية الدسوقي»(١/ ٦٧٣-٦٧٤) [ط. دار الكتب العلمية:١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م].

جوابٌ صَرِيحٌ فِي إبْطَالِ عَمَلِ الضَّرِيحِ

لِلشَّيخ أحمد حَمَّاني؛ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر

• الشَّيخ: أحمد حمَّاني

قَال رَحِمَهُ اللهُ: «زيارةُ الرَّجُل الصَّالِح -حيًّا- مِن الأعمال الصالحة، إذا قصدَ الزَّائِر أَن يَنتفع منه بِأَخْذِ العِلم عنه، أو بِصُحبَتِه إن أَذِنَ له، أو بالدُّعاء لَهُ وتَوجِيهه، أو بتَعَلُّم صنعة دُنيويَّةٍ مِنهُ.

فإِنْ مَاتَ وقُبِرَ، جاز لهُ أَن يَزُور قَبرَهُ للدُّعاء له، ولِلاِتِّعاظ بِقَبرِه، والتَّفكُّر في مَآلِه، هذا إِن كان في قَبر عاديٍّ في مَقبرةِ المسلمين، وأمَّا إن كان قد بُنِي قَبرٌ وزادَ فوقَ شِبْرٍ، فإِنَّ مَن فعلَ ذلكَ بِهِ مَلعونٌ، ومَن أَوْصَى بِبِناءِ قَبرِه كذلكَ مَلعونٌ، وكذلك بناءُ قُرابَةِ (ضَرِيحٍ) عَلَيهِ، فقَد أَشبَهَ عملُهُ عملَ اليهود والنَّصارى، وفي الحديث المشهور: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، وما جاء هذا الحديثُ إلاَّ لِتَحذِيرِ المُسلِمين أن يَفعَلُوا فِعْلَهُم، وقَد قالَهُ (عليه الصلاة والسلام) في مَرَضِ مَوتِهِ.

أمَّا اجتماعُ المسلمين عند قبورهم، وتقديم الذَّبائِح، ودَعْوَتِهم لِجَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ، فإنَّهُ شِركٌ أكبر، ومَن يَفعل ذلك عن اعتقادٍ فقد عبَدَهُم، وإِنْ لَم يُسَمِّ عملَهُ عبادةً، فالدُّعاءُ عبادةٌ أو هو مُخُّ العبادة، ودَعوةُ مَن لاَ يَسمع ولاَ يَنفع ولاَ يَضرُّ ضلالٌ مُبينٌ، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وهذا شَأنُ الأَصنام والقُبور ونحوِها.

وتِلك الذَّبائح على الضَّريح مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ الله، فهِيَ فِسْقٌ، ولا تَعمَلُ فِيها الذَّكاةُ بنَصِّ القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فمَن زار هذا (الضَّرِيح) ودَعَاهُ وذَبَحَ عندَه، فقد ارتكب ثلاثة ذنوب:

أوَّلها: شَدُّ الرِّحَالِ إِلَيهِ إِنْ سَافر، وهِيَ مَعصيةٌ كبيرةٌ، إِذْ لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ لأَحدِ المساجد الثَّلاثَة.

ثانيها: تَقدِيم الذَّبائحِ لِغَيرِ الله، ومَن فَعَلَ ذلك فهُوَ مَلْعُونٌ، ولَحْمُها وطعامُها حرامٌ.

ثالثها: عبادتُها بدُعاءِ أَصحابِها لِجَلْبِ نَفْعٍ أو دفع ضرٍّ، وهذا شِرْكٌ مَحْضٌ، بل شِركٌ أكبرُ لا شِركٌ أصغر، أمَّا المسلم فَهُو مُوَحِّدٌ، والله أعلم»[١].



[١] [«فتاوى الشَّيخ العلامة أحمد حَمَّانِي» (٢/ ٧٥-٧٦)، ط. عالم المعرفة].

تَجرِبَةُ حَكِيمٍ: سَبِيلُ الإِصْلَاحِ...

• الشَّيخ: الطَّيِّب العُقْبِي

مِن أواخِرِ ما كتبَ الشَّيخ الطَّيِّب العُقْبِي رَحِمَهُ اللَّهُ (عام ١٣٧٢هـ= ١٩٥٣م) قولُهُ[١]:

«إنَّنِي بَلَوْتُ هذه الأُمَّةَ في خِدمتي لها أكثرَ مِن ثلاثين سَنَةً، وقَاسَيْتُ في سبيلِ الإصلاحِ ما قَاسَيْتُ، وكانت التّجربةُ قاسيةً، كادت تُؤدِّي إلى اليأس مِن نَجاةِ هذه الأُمَّة المَغْبُونة، ولكنَّ اعتقادي في إصلاح حالِهَا لا يزالُ اليومَ على ما كان عليهِ أمس؛ وهو أنَّ نجاةَ هذه الأُمَّة لا يحصلُ إلاَّ في التَّمسُّك بالكتابِ والسُّنَّةِ والسَّيْرِ على ضوءِ تعاليمهما قولاً وعملاً، فالإسلامُ هُوَ الَّذِي وَحَّدَهَا في الماضي وهُوَ الَّذي يُوَحِّدُهَا اليومَ وغدًا، ولا أساسَ للوحدةِ أَشَدُّ قُوَّةً مِن القرآن الكريم والدِّين الإسلاميِّ الحَنِيف»اهـ.

نجاة هذه الأُمَّة

لا يحصلُ إلاَّ في التَّمسُّك بالكتابِ والسُّنَّةِ والسَّيْرِ على ضوءِ تعاليمهما قولاً وعملاً.

الشَّيخ: الطَّيِّب العُقْبِي

[١] [جريدة «المنار» لمحمود بُوزُوزُو، عدد ١٧، (ص١)].

التَّحَزُّب وتقديس الأَشْخَاص!...

• الشَّيخ: الطَّيِّب المَهَاجِي الوهراني

قال الشَّيخ الطَّيِّب المَهَاجِي أَصْلاً الوهراني مَنزلاً ومدفنًا رَحِمَهُ اللَّهُ - في كلمةٍ لهُ بعُنوان: «لِنَكْتَفِ بالاِنْتِمَاءِ للإسلام والاِنْتِسَاب لِلوَطَن» (عام ١٣٧٢هـ =١٩٥٣م)، قالَ فيها[٢]:

«إن اتِّحَاد الأُمَّة ليسَ هُوَ مُمكِنًا لم يَقَع فيما بعدُ، بل هو أمرٌ واقعٌ مُرتكزٌ في النفوس ومُقَرَّرٌ في الأذهان يَشعُرُ بِهِ وبشِدَّةِ الحاجةِ إليهِ كلُّ الأفراد وجميعُ الهيئات، والذي يَعُوق تَحقُّقَهُ خارجيًّا طِبْقَ ما في الأذهان ويَحرِمُ الأُمَّةَ مِن استِثْمَارِهِ هُوَ الاِنْتِمَاءُ للأحزاب والتَّحَيُّزُ إلى الفِئَات والتَّشَيُّعُ للطوائِف والتَّفَانِي في تقديس الأشخاص وما إلى ذلك من أسباب التفرُّق والاِنحلال، فالواجب بَذْلُ المَجْهُود واستِفْرَاغُ الوُسْع في مُعالجة هذه الأَدْوَاء التي فتكَت بالمجتمع وأَنْهَكَت قِوَاهُ، ومتى نجحت العِلاجات وزالت بواسِطَتها الفوارِق ومُحِيَ أثرُها من النفوس واكتَفَيْنَا بالاِنتِمَاء إلى الإسلام واقتَنَعْنَا بالاِنتِساب إلى الوطن، فإن اتِّحَادَنَا يَتَجَلَّى بين الأَفرَاد والهَيْئَات بأَجْلَى مَظاهِرِهِ ويُصبحُ عُرْوَةً وُثْقَى لاَ انفِصَامَ لها»اهـ.

[٢] [جريدة «المنار» لمحمود بُوزُوزُو، عدد ٢٠، (ص٣)].

جَوَانِبُ مُشْرِقَةٌ في حَيَاةِ الشَّيْخِ

مُبَارَك بن مُحَمَّد المِيلِي

❁ **الهُرُوب مِن قَبْضَةِ الذِّيب!:**

رُبِّيَ «مبارك المِيلِي» يتيمَ الأبوين [وُلِد في ١٨٩٨م]، وهُوَ في حجر جدِّه دخلَ الكُتَّاب وَحفظ أجزاء مِن القرآن وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة، وَبعد وفاة جدِّهِ«رابح» [ت ١٩٠٨م]، أَرغمه عمُّه الأكبر على ترك التعليم، ووَجَّهه إلى العمل الفلاحي والرَّعي، كان الفتى مبارك حزينًا متألِّمًا؛ حيثُ حُرِم مِن رغبته في الاستزادة مِن العلم، وهكذا مضت نحوُ أربع سنوات على هذه الحال، لم تُثْنِ عزمَ هذا الفتى عمَّا كان تُحدِّثُهُ به نفسُهُ؛ إِنَّهُ السَّفَرُ إلى «مِيلة» قِبلة المتعلِّمين. إلى أن جاء يوم هروبه مِن باديتهم، إلى أقرب مكان يُحقق لهُ أمنيتهُ أو بعضًا منها، إلى زاوية الشَّيخ الحسين قُربَ «مِيلَة»، مشيًا على الأقدام لمسافة نحو ٢٧ كيلو مترًا، قطعها في مسيرة يومين شاقَّين، لم يتردَّد ولم يتهيَّب أن يغامر في تلك الدروب والمسالك الجبلية الوعرة، لأجل تحقيق حلمه وبلوغ أمنيته، ولم يمض نحو أسبوعين وهُو في تلك الأجواء العلمية في الزاوية التي أَوَى إليها، حتى ردَّهُ عمُّه، وانقلبَ بِهِ وهو يبكي وينتحِب، وقُطِع مباركٌ عن العلم مرةً أخرى.

لم يزل هذا الفتى عنيدًا!؛ لم ولن يتخلَّى عن الغاية التي لم ينقطع عن التفكير فيها، لقد ظلَّ مُصَمِّمًا على الهُروب لإتمام دراستهِ بِـ«مِيلَة»، لكن عَينُ عَمِّه الذي شدَّدَ عليه الرقابة، كانت تترصَّدُ حركاته ليلَ نهار، وقد كان الناس يُسَمُّونَهُ «**الذِّيبْ**»!، حتى كان يوم سقطت فيه الثلوج بصورةٍ غير عادية، «**كان الثَّلجُ يَصِل للرُّكْبَة**»!.بهذه العبارة وصف الشَّيخ مبارك وضعيَّة قريتِهِ، فقال في نفسِه: هذه فُرصتي للهُروب مِن ضغطِ عمِّي وَسِجنِهِ؛ لأَنَّهُ لَا يتصور أني أهرب في مثل هذا اليوم! وهكذا نجحت خطَّتُهُ في الهروب، مشيًا على الأقدام، رغم أنه لم يسبق له السَّفر إلى «مِيلَة»، التي تفصلُها عن مسقط رأسه ٥٠ كيلو مترًا. هكذا خاضَ هذه الثلوج لا يَعبأُ بخطورة الوضع، ولا بِالبرد الشَّديد، وبإرادةٍ حديديَّة، وعنايةٍ ربانية، وصلَ «مِيلَة» سالمًا. وتَمَّ لهُ ما أراد. كان ذلك في شتاء عام ١٩١٢م، وعُمرُ مبارك (١٥) خمس عشرة سنة[١].

[١] [«أعلام الإصلاح في الجزائر» لمحمد علي دبوز، (٣/ ٣٢-٤٤)، وَ«ذكريات زمن البراءة» لمحمد المِيلِي، (ص١٩٩- ٢٠٠)].

❁ جِدٌّ ومُثابَرَة:

في مراحل طلب العلم؛ الإبتدائي والمتوسِّط: حفظ أجزاء مِن القرآن وتعلَّم القراءة والكتابة في قريته، وهو دون سن ١٤ سنةً، وَانتقل إلى «مِيلَة»؛ يأخذ عن عالمها الشَّيخ محمد بن معنصر المِيلِي، فأَتَمَّ حفظَ القرآن، وَأَتقنَ الفقهَ والنَّحوَ، وَقد حفظ نصف متن مختصر خليل[١].

❁ ألمعيَّة ونَجابَة:

في مراحل طلب العلم؛ النِّهائي: قال صديقه الشَّيخ عبد الحفيظ الجنَّان: «أَذكرُ-حينما زُرتُهُ بتونس عام ١٩٢٣، أيام دراسته- نادرةً طريفةً؛ وهي أنه كان يَمُرُّ بنظره على أوراق دروسه ثم يطويها في المحفظة ولا يحملها وقت الدرس، وبعد الفراغ من الدروس يُوَجِّهُ أسئلةً غريبةً على أساتذته فيُكْبِرُونَهَا، ويَندهِشُ لها الحاضرون. **فهذا دليلٌ على قُوَّةِ ذاكرتِهِ**»اهـ[٢].

قال تلميذه الشَّيخ محمد الصالح بن عتيق المِيلِي:

«واستمَرَّ يَلمَعُ نَجمُه في أوساط الطلبة، إلى أن شارك في امتحان شهادة التَّطويع، فحصل عليها سنة ١٩٢٥م بِتَفَوُّق، وتقدير مِن لجنة الإمتحان، حتَّى إنَّهُ لمَّا انتهى من إلقاء الدرس أمامها، قال له شيخ الإسلام «أحمد بيرم»؛ الَّذي كان ضمن اللَّجنة: «أنتَ مُبَارَكٌ علينا، وعلى أُمَّتِك ووَطَنِك»»اهـ[٣].

❁ مَلَكَةٌ راسِخَةٌ في الفُنُون:

قال تلميذُهُ في مدرسة «مِيلَة»: الأستاذ أحمد الغوالمي:

«كان يُمْلِي بالإرتجال في النَّحو والصَّرف والفقه ومخارج الحروف والمَنطِق وشرح قصيدة السَّمَوْأَل، فتعَجَّبنا! وظنَّ البعض منَّا أنَّه يحفظ ويأتِي، فإذا بنا نراهُ تمادَى على ذلك، ففهمنا أنَّ الرجل أُعجوبةُ زمانه ذكاءً... **وذُو ملَكةٍ راسخةٍ في جميع الفُنُون**»اهـ[٤].

❁ المطبعة الجزائريَّة الإسلاميَّة:

ذكرَ تلميذُهُ الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: أنَّ مشروع المطبعة الجزائريَّة الإسلاميَّة التي تأسَّست بقسنطينة في شهر أفريل مِن سنة ١٩٢٥م، هُوَ: «**مِن بَنَاتِ فِكْرِهِ، وأنَّهُ كانَ مِن الحاملينَ للأستاذ عبد الحميد ابن باديس على تأسيسِهَا**»اهـ[٥].

وقد صرَّح بنحوٍ مِن ذلك الشَّيخُ عبد الحفيظ الجنَّان؛ حيثُ ذكرَ: أنَّهُ بعد تحصيله على شهادة التطويع من تونس، رجع إلى قسنطينة حاملاً معه مسودة قانون أساسي؛ لِيَحُثَّ الطُّلَّاب وأهل العلم

[١] [عبد الحفيظ الجنَّان، والصادق حماني، «البصائر»، عدد ٢٧، (ص٢ وَ٧)] [«الشَّيخ مبارك الميلي: حياته العلمية ونضاله الوطني» لمحمد المِيلِي (ص٣٤٥-٣٤٦ وَ٣٥٠)].

[٢] [«البصائر»، عدد ٢٧،(ص ٧)].

[٣] [«مذكرات محمد الصالح بن عتيق»،(ص٥٠)].

[٤] [«البصائر»، عدد ٢٧، (ص٨)].

[٥] [«البصائر»، السلسلة الثانية، عدد ٢٦، (ص٨)].

على إنشاء مطبعة كبرى، تطبع المخطوطات وتنشر الجرائد والمجلات؛ لتَحيَى أمتُهُ حياة عمليَّة لا نظريَّة.اهـ[١].

❃ عَادَةُ التَّدخِين وَالإِقلاعُ عنها:

قال رَحِمَهُ اللهُ سنة (١٩٣٦م) -فيما رواه ولدُه الأستاذ محمد المِيلِي رَحِمَهُ اللهُ-: «تَعلَّمتُ التدخين عندما كُنتُ طالبًا في تونس، ولما تخرجتُ وذهبتُ إلى قسنطينة، لم أنقطع عن التدخين، كانت مدينة كبيرة، لا يلتفت فيها الناس، لمن يدخن أو لا يدخن، حتى إذا ذهبتُ إلى الأغواط، جلستُ ثاني يوم وصولي، مع مجموعة من رجالها في متجر ثري من أثريائها هو الحاج دْهِينَة. سحبتُ سيجارةً مِن علبة في جيبي، وأشعلتُها، بدَت الدهشة على الحاضرين، ثم قال لي أحدهم: إن التدخين يُعتبر عَيْبًا في نظر السكان، فكيف إذا كان من يُدَخِّنُ عالِمًا دينيًّا! وإذا كان لا بد من التدخين، فلتفعل ذلك عندما تكون في المنزل، أو في مكان لا يراك فيه الناس. ثم قال الشَّيخ مبارك لمَّا روى القصة:

قلتُ: إذا كان عَلَيَّ أن لَا أُدَخِّنَ أمام الناس، فلن أُدَخِّن خفيةً؛ لأنَّ ذلك يُعَدُّ في نظري: نِفَاقًا!... وأَردفَ: قرَّرتُ حينئذٍ أن أتوقَّفَ عن التَّدخين. وقد وجدتُ عناءً شديدًا في ذلك. **لَكِن صَمَدتُ**. وهاهيَ السنة التاسعة التي أقلعتُ فيها عن التَّدخين، ولم تَعُد نفسي تَهْفُو إلى السجائر»اهـ[٢].

❃ عِفَّةُ شَابٍّ:

لمَّا سافر رَحِمَهُ اللهُ للعلاج بفرنسا، كتب على كراسة صغيرة كان يُسَجِّل فيها خواطره، كتب في إحدى ورقاتها، تحت عنوان: «لَوْعَة الشَّوق» ما يلي حرفيًّا:

«لَا أَعْلَمُ للشَّوْق سُلطانًا على عواطِفِي عَجَزَت عن تخفيف وطأتِهِ قُوَّتِي الفِكريَّة إلَّا مرتين:

ـ **إحداهما**: وأنا شابٌّ؛ علق قلبي فتاة، علقتني هِيَ الأخرى. وكانت حربٌ بين عقلي وهوَايَ. فاز فيها الهَوَى بالحُبِّ العُذريِّ، **وفازَ فيها العَقلُ بِالعِفَّة، مع وُجُودِ دَوَاعِي الفاحشَة وفَقْدِ مَوَانِعِها**».

❃ رِقَّةُ أَبٍ:

قال: «**ثانيتهما**: في سفرتي هاته إلى فرنسا لعلاج داء السُّكَّرِي التي دامت من ٢/ ٣/ ١٣٥٧هـ إلى ٢٩/ ٥/ ١٣٥٧هـ= الموافق: ٢٨/ ٥/ ١٩٣٨م إلى ٢٧/ ٧/ ١٩٣٨م. فقد كنتُ أُريد أن أنسى كلَّ علاقاتي الشخصيَّة والفكريَّة أيَّام علاجي، ففُزتُ إلَّا من ناحية ولدي البِكر «محمَّد»، **فقد كُنتُ أَهْتَاجُ لِذِكْرَاهُ حتَّى تكاد تَنفَلِتُ دُمُوعِي أمام النَّاس**، ولولاه لكان غيابي أطوَل»اهـ[٣].

---

[١] [«البصائر»، السلسلة الثانية، عدد ٢٧، (ص٧)].

[٢] [«الشَّيخ مبارك الميلي: حياته العلمية ونضاله الوطني» لمحمد المِيلِي (ص٧٦-٧٨)].

[٣] [«الشَّيخ مبارك الميلي: حياته العلمية ونضاله الوطني» لمحمد الميلي (ص١٦٠)].

❁ دَعْوَةٌ وَتَأْثِيرٌ:

في سنة ١٩٣٦م، كان الشَّيخ مبارك يُرغِّبُ سُكَّانَ «مِيلَة» في البذل ومَدِّ يد المساعدة لإبراز مشروع بناء مسجد جامع ومدرسة، فاشتروا أوَّلًا دارًا بـ: ٤٠ ألفًا[١]، قالت التقارير الفرنسيَّة: «عندما أطلقَ الشَّيخ مبارك فكرةَ بناء مدرسة، **لقيت هذه إقبالًا حماسيًّا منقطِع النَّظير**، بعضُهم باعَ أرضَهُ ليتبرَّعَ بثمنِهَا، وهناك من تبرَّعَ بالمصوغ، وهناكَ من تبرَّع ببَرَانِيسِهِ، وما لبث أن جمع الشَّيخ مبارك ٤٠ ألف فرنك، اشترى بها منزلًا، حوَّلهُ إلى مدرسة»[٢].

وقال الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: «جَعلَهم المِيلي يُهِينُون المال في طلب المعالي يبذله رجالُهم عن طواعية ويتبرع نساؤُهم عن طِيبِ خاطر بأنفس ما يملِكن مِن حُلِيٍّ ومَصُوغ!»[٣].

ونشرت «جمعية حياة الشَّباب» بمِيلَة عام ١٩٣٦م قائمة المتبرعين لتأثيث مدرستها، وكان منهم: الشَّيخ مبارك المِيلِي، تبرع بـ: ٥٠٠ فرنك[٤].

❁ تَبَرُّعٌ وَإِحْسَان:

وشرعَ الشَّيخ مبارك بعدُ في بناء المسجد الجامع، يقول الأستاذ محمد المِيلِي -ولدُ الشَّيخ-: «**أمَّا المسجد فقد بَنَاهُ فوقَ أَرضٍ اشتراها الشَّيخ مبارك مِن خالِص مالِهِ**، مساحتها أربعة آلاف متر مربَّع، شيَّدَ منها منزلًا له، واقتطع منها جزءً جعله بستانًا له، وتبرَّعَ بالباقي(وهو الجزء الأكبر)لِيُبنَى عليهِ المسجِد الجامع»اهـ[٥].

❁ **حتَّى حَرَمُ الشَّيخ مُبَارك ونِساءُ «مِيلَة»!:**

في سنة ١٩٣٧م، نشرت «البصائر» قائمة «**التَّبرُّعات لِتَشييد جامع «مِيلة» الحُرِّ ومدرستها الـحُـرَّة**»، وقـدَّمـت القائمة الـخاصـة بالنِّساء، ومِنهُنَّ: «**حَرَمُ الشَّيخ مبارك المِيلِي=(تبرَّعت بـ: مَسَايِس**»[٦].

قال الشَّيخ أحمد حماني المِيلِي في «حديث المتجوِّل» عن زيارته إلى «مِيلة»: «وهل نسي القُرَّاء ما قام به نساءُ «مِيلَة» مِن التَّبرُّعات للجامع؟ ولقد حُدِّثتُ أنَّ أكثر أولئك النِّسوة الكرائم كُنَّ يَتبرَّعن وهُنَّ لَا يملكن أكثر ممَّا تبرَّعن به من الحُلِيِّ، وهذا مُنتهى الكرَم والتضحية، ولقد أَحيَيْنَ بذلك سُنَّة صدر الإسلام عندما كانت النِّسوة يُشاركن في كل حركة مفيدة ويتبرَّعن بحُلِيِّهن للأعمال الجليلة»[٧].

❁ **إِرَادَةٌ وجِدِّيَّةٌ في العَمَل:**

قال تلميذُه الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: «كان لا يتخلَّفُ عن حضور الاجتماعات العامة

[١] [«البصائر»، عدد (٧)].
[٢] [«ذكريات زمان البراءة» لمحمد المِيلِي، (ص١٩٧)].
[٣] [«البصائر»، السلسلة الثانية، عدد ٢٦، (ص٨)].
[٤] [«البصائر»، عدد٧].
[٥] [«ذكريات زمان البراءة» لمحمد المِيلِي، (ص٥٧ وَ١٩٨)].
[٦] [«البصائر»، السلسلة الأولى، عدد (٧٩)، وَ (٨٠)].
[٧] [«البصائر»، السلسلة الأولى، عدد (١٠٧)].

والإداريَّة للجمعيَّة التي كانت تُعقَد غالبًا بالعاصمة، وكثيرًا ما يُسافِرُ وهو في منتهى الضعف؛ مضطجِعًا؛ لعجزِهِ عن الجلوس طويلًا!»[١].

❋ تَعَفُّفٌ وَإِبَاء:

اشتدَّ المرض على الشَّيخ مبارك في سنة ١٩٣٦م، بعد جولةٍ كلَّفَتهُ بها جمعية العلماء، فطلب بعضُ رجال الجمعية أن تُعِين الجمعيةُ الشَّيخَ مبارك على العلاج، وَتَمَّت الموافقة على ذلك بِقرار، لم يعلم الشَّيخ مبارك بذلك الطَّلَب ولا بالقرار، إلَّا بعد حينٍ، فلمَّا علم أنكرَ ذلكَ، وردَّ الإعانةَ ولم يَقبلها، ولَامَ إخوانَه الذين لم يستشيروه في عرض هذه الإعانة، فاعتذروا له بأنَّهم يَعلمون انقباضه من ذلك، وأنَّهم يَنْوُون أن يُنفقوها عليهِ من غير أن يُعلِموهُ. وهكذا لم يَقبض الشَّيخ إعانةً على مرضِهِ مِن الجمعيَّة[٢].

❋ ومَرَّةً أُخْرَى... تَبَرُّعٌ وإِحْسَان:

نشرت «البصائر» في شهر سبتمبر ١٩٣٧م؛ القائمة الثالثة لِـ «التبرُّعات لِتَشيید جامع مِيلَة الحُر ومدرستها الحُرَّة»، فجاء ذكر اسم: الشَّيخ مبارك المِيلِي؛ تبرَّع بِـ: ٥٢٠ فرنك[٣].

❋ ومرةً ثالثة... :

نشرت «البصائر» في شهر سبتمبر ١٩٣٨م؛ القائمة السادسة لتبرعات لتَشيِيد جامع مِيلَة الحر؛ بعد تمام المدرسة؛ فكان مرَّةً أُخرى اسمُ الشَّيخ مبارك المِيلِي؛ مُتبرِّعًا بِـ: ٥٠ فرنك[٤].

❋ إدَارة جريدة البصائر:

حصَّلت جمعية العلماء -ديسمبر ١٩٣٥م/ أوَّل ١٩٣٦م- على الرُّخصة والإذن بإصدار صحيفة تُمثِّلُها وتكونُ لسان حالها، فكانت «البصائر»، واختِير لإدارتها ورُشِّح لذلك أوَّلاً الشَّيخ مبارك المِيلِي، فأبَى عليهم وامتنع مِن القبول، واعتذرَ لِعظمِ المسؤولية وثِقَل الحِمل وَجلالة العَرض، فوقع الاختيارُ بعدُ على الشَّيخ الطيِّب العُقبي، فأدارَها مُدَّةً، ولمَّا رأى هذا الأَخير أنَّهُ صارَ يتحمَّلُ ما لا يُحتَمَل، وأنَّهُ لا يَقدرُ على الاستمرار، قرَّرَ التَّخلِّي عنها، وأعطى إدارة الجمعية مُهْلَةً أَخيرةً؛ «إلى آخر هذا الشَّهر فقط!»[٥]، فرأى الجماعةُ أن يكون الشَّيخُ مبارك المِيلِي هُو الذي يتولَّى إدارة الصَّحيفة، فاعتذرَ اعتذارَهُ في المرَّة الأولى، وعُذره هذه المرَّة أَقوى، فقد اشتدَّ عليهِ مَرضُ السُّكَّري، لكنَّهُم هذه المرَّة لم يَتركُوا لهُ الاختيار ودَفَعُوهُ إليها دفعًا، ولم يَقبلَ «**إلَّا مُكْرَهًا إِكْرَاهًا أَدَبِيًّا**»، كما قال، وقال أيضًا: «**فتقدَّمتُ إلى العمل وأَنَا أُرَدِّدُ قَولَهم في المَثَل: «مُكْرَهٌ أَخَاكَ لَا بَطَل»**». وَتَسَلَّمَ إدارتها -ابتداءً مِن عدد ٨٤- وهِي مَدِينةٌ بأكثر مِن عشرين

[١] [«البصائر»، السلسلة الثانية، عدد ٢٦، (ص٨)].

[٢] [«البصائر»، عدد (١١٤)].

[٣] [«البصائر»، عدد (٨١)، (ص٣)].

[٤] [«البصائر»، عدد ١٣٣، (ص٨)].

[٥] [«البصائر»، عدد ٨١، (ص٦)].

ألف فرنك[١].

قال تلميذه الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة الأغواطي: «أُسندت إليه إدارة «البصائر» في سنة ١٩٣٧م بقرار من المجلس الإداري لجمعية العلماء؛ فقام بواجبه خير قيام رغم متاعب الصحافة وتكاليفها ورغم المرض المُزْمِن المُضْنِي الذي أنهك قواه ونغَّص عليه حياته... كان يذهبُ مِن مِيلَة إلى قسنطينة كل أسبوع للإشراف على إصدار «البصائر»»اهـ[٢].

❁ خِبرَة بالمطبوعات:

تكلَّم الشَّيخ مبارك (سنة ١٩٣٧م) عن كتاب «آثار المدينة المنورة» لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، وتعجَّبَ كيفَ أن الكتاب طبع منذ سنوات، وأنه لم يسمع به، حتى أهداه إليه مُؤَلِّفُه، قال: «**هذا مع خِبرتنا بكثير مِن تآليف مصر قبل بروزها مِن المطبعة!**»[٣].

❁ مُباركٌ الكاتِب وفِقهُ اللُّغة:

يقول الأستاذ الأديب حمزة بوكوشة: «تدلُّ آثاره (الكتابية) على صدق التصوير والبلاغة في التحرير، ولقد سمعتُ مِن أستاذنا الشَّيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أن علماء الجزائر وأدباءها، لا يلتزمون بالمحافظة على استعمال فقه اللغة فيما يكتبون، وحتى الأستاذ عبد الحميد بن باديس قد يتسامح أحيانًا، **إلَّا الشَّيخ المبارك المِيلِي؛ فإنِّي تتبَّعتُهُ فوجدتُه مُحافظًا على فقه اللغة فيما يكتبه.**

وهذه شهادةٌ من إمام من أئمة اللغة، ألا وهو محمد البشير الإبراهيمي، ولا ينبئكُ مثلُ خبير»اهـ[٤].

❁ مُبارَك؛ الشَّاعِر المَجهول:

في وفد جمعية العلماء بِوادي سُوف ونواحيها، يقول الشَّيخ حمزة الذي صاحَبَ الوفد مِن بسكرة، وسار معهم صباح الأربعاء [شوال ١٣٥٦هـ= ديسمبر ١٩٣٧م] على سيارة خاصة؛ قال: «فسارت بنا وانسابت في الرعاء انسياب أفعوان الحق الذي يفر الباطل مِن فحيحه، وأصبح لنا الشَّيخ المبارك المِيلِي شاعرًا مُبدِعًا بعدما كنا نظنُّهُ ناثِرًا فحسب، فعندما وصلنا رمال وادي سُوف والسيارة تَمِيل بنا يمنةً ويسرةً؛ كسفينةٍ في الأمواج المتلاطمة، قال الشَّيخ حفظه الله:

رِمَالَ الوَادِ يَا خَيْرَ الرِّمَالِ
وَيَا حِصْنَ العُرُوبَةِ فِي النِّزَالِ

...»[٥].

❁ سَيِّداتِي!!سَادَتِي!:

قال الشَّيخ مبارك عن استماعه للإذاعة العراقيَّة،

[١] [«البصائر»، عدد ٨٤، (ص١-٢)، وَعدد ١٥٦ (ص ٢)].

[٢] [«البصائر»، السلسلة الثانية، عدد ٢٦، (ص٨)].

[٣] [«البصائر»، عدد ٨٠، (ص٧)].

[٤] [«الشخصيات الجزائرية في القديم والحديث: مقالات الأستاذ حمزة بوكوشة»، ص٣٥٧-٣٥٨)].

[٥] [«البصائر»، عدد ٩٣، (ص٣)].

وبعد أن ذكرَ إعجابَه بالمذيع العراقي: «... **ومع ذلك نودُّ لو يُجرِّد لُغتَهُ مِن غير لُغة قومِهِ؛ فلَا يُقدِّم السَّيِّدات على السَّادَة!**»[١].

❋ **إنِّي أكره التواضع القاتل للطموح:**

في حفلة تدشين «مدرسة حياة الشَّباب» بمِيلَة عام ١٩٣٧م، خطب جملة من الخطباء قدمهم الشَّيخُ مبارك واحدًا واحدًا، وبعد أن قدَّم الشَّيخ عبد الحفيظ الجنان، نَكَّتَ الخطيب على الشَّيخ المِيلِي تقديمه، وقال: أنا لا أستحق منك أيها الأستاذ هذا الثناء، وأراد أن يزيد في تواضعه، فأجابه المِيلِي بِـ (قوله): «**إنِّي أَكرَهُ التواضع القاتِل للطُّموح، كما أكره الغُرور الدَّاعِي للشُّرور**»اهـ[٢].

❋ **لَا شُكْرَ على وَاجِب!:**

في حفلة تدشين «مدرسة حياة الشَّباب» بمِيلَة، ٢ شوال ١٣٥٦هـ= ٥ ديسمبر ١٩٣٧م، يقول الشَّيخ عبد الحفيظ الجنان في مكاتبته: «ألقى المبارك في النادي الإسلامي خطاب الترحيب بالوافدين، وقدَّم الخطباء، وبعدما خطب الشَّيخ أبو صالح مِن «شَاطُودَانْ»(شلغوم العِيد حاليًّا)، خطب الشَّيخ عبد اللطيف القنطري(سُلطاني) مِن «القرارم»بعد أن عرَّف به الشَّيخ المِيلِي..وقال: بعد الحمد لله والصلاة على من لا نبي بعده: تحية يا أهل مِيلَة على قيامكم بالمدرسة، وشُكْرًا لكم، ولو كان الشُّكرُ لَا يكون على واجب. فأوقفه المِيلِي وقال: «**بل إنَّمَا الشُّكرُ الحَقُّ على فِعْلِ الواجِب، وانظُر إلى ثواب اللهِ كيف يُضاعَف في الواجبات**» -مِن حِدَّةِ نَظَرِ المِيلِي ونكاته الأدبية الَّتِي لَا يَخلُو مَجلسُهُ مِنهَا-اهـ[٣].

❋ **العِلْمُ لا وَطنَ لهُ:**

انتقل الشَّيخ مبارك المِيلِي إلى الأغواط -سنة ١٩٢٦م-؛ تلبيةً لدعوةٍ مِن أحد الكبراء، وهذا بعدما أقام بقسنطينة نحوَ سنةٍ معلِّمًا في مكتب الدروس العربية «مكتب سيدي بومعزة» (١٩٢٥م-١٩٢٦م)، وقد غادرهُ حيثُ لم يكن يتوقَّعُ لهُ النَّجاح. نعم، قبِلَ الشَّيخ مبارك دعوة الأغواطيِّين؛ لأنَّهُ - كما قال الشَّيخ أحمد بوشمال سنة ١٩٢٧م: «**لَا وَطَنَ خاصًّا للعِلم؛ فحَيثُمَا وجدَ العالِم تُربةً طَيِّبَةً لِبَذْرِه أَقْبَلَ عليها**»[٤]، وَهِيَ الكلمة نفسُها التي قالها الشَّيخ مبارك الذي رجع بعد سنين إلى بلده «مِيلَة»، يُدير مدرستها «مدرسة حياة الشَّباب»، وزار المدرسةَ في أحد احتفالاتها تلميذُه القديم بمدرسة الأغواط -الشَّيخ أبو بكر بن بلقاسم الأغواطي-، فقدَّمَهُ بقولهِ: إنَّهُ رجع بشهادة التحصيل مِن تونس إلى بلدته الأغواط، وطلب رُخصة التعليم، فلم تأذن له الحكومة، فجاءتهُ الدَّعوةُ مِن قسنطينة فلبَّاهَا، فكان مِن أساتذة مدرسة

[١] [«البصائر»، عدد ٩٣، (ص٣)].
[٢] [«البصائر»،عدد ٩٥].
[٣] [«البصائر»،عدد ٩٤،(ص٥)].
[٤] [«الشِّهاب»، عدد ٨٥، (ص١٥)].

جمعية التربية والتعليم القسنطينيَّة، قال: «**وَالعِلْمُ لَا وَطَنَ لَهُ**». كان ذلك في شهر ديسمبر من سنة ١٩٣٧م[١].

❋ لا أَكتُبُ كِتابةَ الجرائد!:

قال الشَّيخ أحمد حماني المِيلِي:

«سألتُهُ ذاتَ يومٍ: لماذا لم تُتِمَّ التَّاريخ؟ فاعتذر بالمرض، وبِكثرة الأشغال، وبِجهلِهِ اللغة الفرنسيَّة. فقلتُ: ولماذا لا تفعل كما فعلَ (فلان)؟ فأجابَ: إِنَّني لا أكتبُ كتابةَ الجرائد!»[٢].

وَقال في موضعٍ آخر: سألتُهُ عام ١٩٣٨م عن سبب تأخُّرِهِ في إتمام مُهمَّتِهِ، فذكرَ لي هذه الأَعذار الثلاثة. فقلتُ: ما بَالُ (بعضهم) قد كتب في نفس الموضوع وأَتَمَّ عملَه؟ فأجاب: أنا لا أَكتُبُ كتابةَ صُحُفِيٍّ![٣].

❋ تَهَجُّدٌ وعبادةٌ مِن اللَّيل:

كان مِن عادتِهِ رَحِمَهُ اللهُ أن يقوم قبل الفجر، بِسَاعاتٍ، ويتهجَّد في المنزل. وعندما يَحِينُ وقت صلاة الصبح يتحوَّل إلى المسجد. وبعد أداء صلاة الصبح في المسجد يَرجع إلى غُرفته لِيَنام تعويضًا، إلى بعد طلوع الشمس[٤].

[١] [«البصائر»، عدد ٩٥].

[٢] [كتاب «الشَّيخ الصادق بن رابح حماني»، لأحمد حماني (ص٣٩)].

[٣] [«صراع بين السُّنَّة و البِدعَة» لأحمد حماني(٢/ ١٨)].

[٤] [«الشَّيخ مبارك الميلي: حياته العلمية ونضاله الوطني» لمحمد المِيلِي (ص٨٦ وَ٨٩ وَ٩٠)].

❋ تِلميذٌ مفجوعٌ بأُستاذِهِ:

يقول الأستاذ محمد المِيلِي: اطلعتُ على رسالة وجَّهها إلى الشَّيخ البشير الإبراهيمي، وكان هذا الأخير طلب منه أن يصف له يوم جنازة الأستاذ الشَّيخ ابن باديس- يقولُ لهُ فيها على ما أذكر معناه: «**عندما سمِعتُ لَدَى وُصُولِي إلى قسنطينة بِمَوتِهِ، شَعَرتُ أَنَّ الدَّورَةَ الدَّمَويَّةَ أَصبَحت تَسِيرُ في عكس الاِتِّجاه المعهود. وعَرَفتُ في الحِينِ أَنَّ دَاءَ السُّكَّرِي، قَد عَاوَدَنِي، وأَنَّهُ لَن يُفارِقَنِي حتَّى يَقضِيَ عَلَيَّ**»اهـ[٥].

ويقول الأستاذ أحمد حماني المِيلِي: «لَمَّا تُوفِّي الشَّيخ ابن باديس -في ١٦ أبريل ١٩٤٠م- كان وَقْعُ ذلك عليهِ أليمًا، وأُغمِيَ عليهِ بقرب جثمانِهِ، غير أنه استعادَ وَعْيَهُ وملكَ صبرَه وإيمانَهُ»[٦].

ويقول الأستاذ محمد الصالح بن عتيق المِيلِي: «انتهى موكب الجنازة إلى المقبرة الخاصة بالعائلة، ووضع الجثمان **وتقدَّم العلَّامة مبارك المِيلِي وصَلَّى عليهِ**، وأَبَّنَهُ بِكلماتٍ مُؤَثِّرَة، جاء فيها يُخاطبُ الرَّاحِل: «نَمْ هنيئًا مطمئنًّا، فما غرستَهُ سَينْمُو ويُثمِر، فقد تركتَ بعدكَ رجالًا وإخوانًا، وتلاميذ يُجدِّدون لك العهدَ اليوم بأنهم سيُواصلون الكفاح **ويستمرُّون في السَّير على النهج الذي تركتَهُم عليهِ،**

[٥] [«الشَّيخ مبارك الميلي حياته العلمية ونضاله الوطني»، (ص١٠٩)].

[٦] [«صراع بين السنة والبدعة»(٢/ ١٦)].

مُستمدِّينَ مِن الله **العَون**، ومِن روحكَ الطاهرة الدليلَ والمُرشِد...»»اهـ[١].

❁ قَدْ طَالَ عليَّ ذلك الدَّاء!:

قالَ الشَّيخ مبارك المِيلِي في رسالةٍ بتاريخ ٢٩ محرم ١٣٦٤هـ=١٣ جانفي ١٩٤٥م؛ بعثَ بها إلى الشَّيخ محمَّد خير الدِّين يتحدَّثُ فيها عن شؤون الجمعيَّة وخدمة الصَّالح العام، وذلك بأقلَّ من عشرين يومًا قبل وفاته، خاتِمًا رسالتَه بقولِهِ:

«...قد طالَ عليَّ ذلك الدَّاء، وأنا لَستُ صابرًا فقط، بل إنِّي أَحمدُ الله على أن وفَّقني إلى الرِّضَا بِقضائِه، وإنِّي -عَلِمَ اللهُ- لَا آسَفُ على راحَةٍ عَزَّت، ولا على لَـذَّةٍ فُقِدَت، وإنَّما آسَـفُ على خدَماتٍ للدِّينِ والعُروبةِ عُطِّلَت، وأسأَلُ اللهَ أَن يَجعلَنَا مِمَّن يُثَابُونَ على العَمَل وَالنِّيَّة، لَا مِمَّن يُثَابُونَ على النِّيَّةِ وَحدَها...»اهـ[٢].

❁ سَامِحْنِي!:

قال الشَّيخ أحمد حماني المِيلِي:

«في يوم ٨ فبراير ١٩٤٥م، دخلتُ إلى مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، فوجدت الدكتور ابن الموفق رَحِمَهُ اللهُ نازلًا في درجه، ووجهُه مُكفَهِرٌّ، ويكاد دَمْعُهُ يَسيل، فصعدت مُسرِعًا، ولقيت الأخ محمَّد صالح بن معنصر، فبادرتُهُ بالسؤال: ما الخبر؟ فقال: إنَّ الشَّيخ مبارك في خطَر! ففزعتُ ودخلتُ الإدارة حيثُ يُوجد، فوجدتُهُ مُلقًى على جنبِهِ لا يَكادُ يتحرَّك، فاقتربتُ منهُ، وسلَّمتُ عليه، **فنَظَرَ إِلَيَّ ومَدَّ نَحْوِي يَدَهُ بِضَعْفٍ، وَقال:سَامِحْنِي!**. وكانت آخرَ كلمةٍ سمعتُها مِنهُ، فإنَّهُ أُخِذَ إلى «مِيلَة»، ودخل في غيبُوبةٍ، ومِن الغد يوم ٩ فبراير، تَلَقَّيتُ مكالمةً من إدارة البريد بقسنطينة من الأستاذ محمود دمق -الذي كان عاملاً بِها- فأخبرني أنَّهُ مرَّ عليهِ تليغراف يُخبر بوفاة الشَّيخ مبارَك»اهـ[٣].



قال الشَّيخ أحمد بوشمال رَحِمَهُ اللهُ:

«لَا وَطَنَ خاصًّا للعِلم؛ فحَيثُمَا وجدَ العالِم تُربةً طَيِّبَةً لِبَذْرِه أَقْبَلَ عليها»

[«الشِّهاب»، عدد ٨٥، (ص١٥)]

وقالَ الشَّيخ مبارك المِيلِي رَحِمَهُ اللهُ:

«وَالعِلْمُ لَا وَطَنَ لَهُ»

[«البصائر»، عدد ٩٥]



[١] [«مذكرات محمد الصالح بن عتيق»، (ص١٠٠-١٠١)].

[٢] [كتيِّب «الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: صُور من نشاطه خدمةً للإسلام والعربية والجزائر»، إعداد: ابن عمر بن أبي زيد قصيبة، (ص٢٩)].

[٣] [«صراع بين السُّنَّة والبِدعَة» لأحمد حماني (٢/ ١٧-١٨)].

آثارٌ سَلَفِيَّة

في العِلم وآدَابِه

■ روى الطُّيُورِيُّ (رقم ١٠٦٣) بِإسنادٍ حسَنٍ، عن الجُنَيْد رَحِمَهُ اللهُ قالَ: «ما أَحَدٌ طَلَبَ شَيْئًا بِجِدٍّ [وَصِدْقٍ] إِلاَّ نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّهُ نالَ بَعْضَهُ!»، ورواهُ -أيضًا- الخطِيب البغدادي في«الجامِع» (رقم ١٥٥٥).

■ وروى (رقم ١٥٥٨) عنهُ أيضًا قالَ: «بابُ كُلِّ عِلْمٍ نَفِيسٍ جَلِيلٍ؛ مِفتَاحُهُ: بَذْلُ المَجْهُودِ».

■ عن عُثْمَان بن عُـرْوَة، عَنْ أَبِيهِ [عُـرْوَةَ بنِ الزُّبَيْر]؛ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِبَنِيه: «أَيْ بَنِيَّ! إِنَّ أزهدَ النَّاسِ فِي عالمٍ: أَهْلُه، هَلُمُّوا إِلَيَّ فتعلَّموا، فَإِنَّكُم تُوشِكُوا أَنْ تَكُونُوا كِبَار قوم، إِنِّي كنتُ صَغِيرًا لا يُنْظَرُ إِلَيَّ؛ فَلَمَّا أَدْرَكْتُ مِنَ السِّنِّ مَا أَدْرَكْتُ جعلَ النَّاسُ يَسْأَلُونِي، فَمَا أَشَدَّ على امْرِىءٍ يُسْأَلُ عَنْ شيءٍ مِنْ أمرِ دِينِهِ فَيَجْهَلُهُ» [تاريخ ابن أبي خيثمة، السفر الثاني،(٢/ ٩٢٨)، (رقم ٣٩٦٩)].

■ عَنْ عَطَاء بْنِ يَسَار، قَالَ: «مَا أُتِي شَيْءٌ إِلَى شيءٍ أَزْيَنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ». [تاريخ ابن أبي خيثمة، السفر الثالث،(٢/ ١٥٢)، (رقم ٢١٦٥)].

■ قَالَ: الزُّهْرِيّ: «نِعْمَ وَزِيرُ العِلْمِ: الرَّأْي».

وَقَالَ: «إِنَّمَا العِلْمُ خَزَائِنُ، وَتَفْتَحُهُ المَسْأَلَةُ».

وَقَالَ:«إِنَّمَا يُذْهِبُ العِلْمَ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ المُذَاكَرَةِ». [تاريخ ابن أبي خيثمة، السفر الثالث،(٢/ ٢٥٢)، (رقم ٢٧٣٨ و٢٧٤٤ و٢٧٤٥)].

■ عن الرَّبِيع بن خيثم قال: «كُلُّ مَا لاَ يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ يَضْمَحِلُّ» [الزهد لأحمد بن حنبل(ص٤٠٤)]



مِن رِحلَات الشَّيخ الأزهري ثابت (٠٣)

تابع = الرحلة الموفقة - زمن الكهولة (١٩٨٣) ملتقى الفكر الإسلامي

قال (حفظه الله):

(٦) جامع أحمد باي

جامع أحمد باي يعجز القلم عن وصفه البديع وشَكلِهِ الرَّفيع.. إِنَّهُ آيةٌ مِن آيات المساجد القديمة في النَّقْشِ والتَّخْطِيط، ولعلَّني أقول: هُو رَوعَةٌ في التَّجمِيل والتَّنسِيق مُنذُ القِدم، ورغم الاحتلال الفرنسي حيث حوِّل إلى كنيسةٍ ما يَربُو على قرن ونيف، فلقد بقي على حالِهِ وطِرَازِهِ الإسلامي العظيم، لَا سِيَّما المحراب الجميل، والمنبر الأَشَم الأنيق، وقد قيل لي: إنَّ فرانسا أرادت أن تنقله إلى باريس، حيث رفعته إلى عنابة، لكن لم يساعدها الحظ. وقيل عن طريق آخر؛ يرويه أَحَدُ قيِّمِ[ي] المسجد، يروي قصةَ المنبر عن الشَّيخ النُّعيمي؛ أنَّهُ قال: بقي المِنبر في المسجد مُعَلَّقًا إلى وقت الاِستقلال. ومهما يكن مِن شيءٍ، فلقد رجع كلُّ شيءٍ مَجرَاهُ، والحمدُ لله.

وصلَّينا الجُمعةَ فِيهِ بعد [١:٣٠]، واعتلَى المنبر الشَّيخ علي مغربي، وأَمَّ آلاف المصلين مِن البلد وغيره، مثل الموكب الوزاري والمدعوِّين للملتقى ومِن الشَّبَاب والطُّلَّاب بِالخُصوص.

(٧) ملحق الرحلة

بعد صلاة الجمعة وتناول الغذاء عند رفيقي الحاج رابح وفقه الله وزاده من عنده، أي: بعد الثالثة مساءَ الجمعة، خرجنا مِن منزل الرفيق بشارع زيغود يوسف المُطِل على «لاَبْرِيشْ» ساحة البريد والمسرح البلدي والحديقة العامة، توجَّهتُ وإِيَّاهُ



نحو مسجد قَمُّوش، وتأدُّبًا مسجد سيدي قَمُّوش، المعروف بهذا الإسم منذ عهد آباء باديس رحمهم الله.

فكان مِن فضل الله أن دخلتُهُ وصلَّيتُ فيهِ ما شاء اللهُ مِن الركعات، وتَذكَّرتُ الحلقات الَّتِي كُنَّا نجتمع ونستمع دروس العلم والمعرفة عن أساتذتِنا أمثال الشَّيخ السَّعيد الزَّمُّوشِي ومحمد صالح رمضان والشَّيخ المغزي وغيرهم، وَفِي جامع سيدي بُومَعْزَة أيضًا، أمَّا الجامع الأخضر فكُنَّا نَكْرَعُ أكواب العلم دروس العقيدة على شيخِنا عبد الحميد، حيثُ كان حظُّ السَّنَة الأولى سنة الأجْرُومِيَّة في ١٩٣٩- بينما طُلَّابٌ يَفُوقُ[ونَـ]نَا، فحَظُّهُم أوفَرُ في الدِّراسة والحِصَص بجامع الأخضر، حيثُ طبَقَتَا القَطْر وطبقة الأُشْمُونِي والمَكُودِي.

(٨) ملحق:

وفي سيدي قَمُّوشْ سألتُ على بعض الإخوة والمراقبين والعُرَفَاء، فأجابَنِي المُكلَّف هناك القيِّم بالجامع السيد «حَمْدَان»، فمِنهُم مَن قضى نَحْبَهُ ومِنهُم مَن يَنتظِر وما بَدَّلُوا تبديلًا... مِن ذلك المُتوفَّى: السيد غربي مولود رَحِمَهُ اللهُ وغيره.

ومِن سيدي قَمُّوش إلى الكَتَّانِيَّة الكُلِّيَّة قديمًا، فدخَلْنَا إلى مسجدِها العتيق، وصلَّينا العصر، وطُفْتُ في بعض أرجاء الكُلِّيَّة العِلميَّة، وتذكَّرتُ آنذاك تلامذتَها وطُلَّابَها، الذين هُم في وادٍ والجامع الأخضر في واد... وشَتَّان بين مُصلِح ومُبتدِع، لكن جمع بين الوَادَين الفقه الإسلامي والقواعد والأركان، وتذكَّرتُ في الأربعينات وبالضبط ١٩٤٥، تَذكَّرْتُ الطَّالِب عبد المجيد فقيه، الَّذِي يدرس بهذه الكُلِّيَّة، وجيء به مريضًا منها، وتُوفِّي بمسقط رأسه سيدي عمران جامعة في ساعة نزوله بالقرية.

(٩) المركز الإداري:

المركز الإداري أين سكنى المدعوِّين والضيوف للملتقى، هو مركز التكوين الإداري وسط المدينة. فيه جميع المرافق ومُجهزٌ بالأجهزة الحديثة، وكأنه نَزْلٌ مِن الطِّراز الأَنِيق السَّامِي في معناه ومدلوله. فالتحقتُ به بصورةٍ نظاميةٍ بواسطة مَن يَعرفونني وأَعرفُهم، والحمد لله.

واتَّصلتُ بِأساتذةٍ مِن الغرب الجزائري وبالضَّبط الميدية الأستاذ بن عواز وغيره. والأستاذ الشَّيخ زهير وقادري المفتش مِن المنطقة وابن السَّائِح والشَّيخ دردور وطلحة من تيزي وزو.

كما حظيت بلقاء الدكتور عبد الرزاق قَسُّوم في الجامعة بل في قاعة المحاضرات.

والمحامي الأستاذ سليمان الصيد والدكتور غاغ، وغيرهم كثيرون، في الموكب الرئاسي والإداري وذوي المهام الأخرى.

(١٠) الجامعة:

حَقًّا إنَّها الجامعة العظيمة، جمعت فأَوْعَت،

وطابَق الِاسمُ المُسَمَّى.

إِنَّها روعةٌ في التَّشييد، إِنَّها آيةٌ في الإبداع والتنسيق، إِنَّها روضةُ قسنطينة قلب الجزائر المجاهدة النَّبيلة، إذا زُرتها وزُرت أجنحتها وطُفْتَ بطوابِقِها ومراكزها وعَرَّجْتَ على أقسام الدراسة ثم أَطَلْتَ النَّظَر حول المصالح الآلِية والأجهزة الإليكترونيكية الحديثة، تقول أيُّها الشاهِد وفي نفسك المدهوشة... أنا لستُ في قسنطينة، إِنَّما أنت في قُرطبة قديمًا، أو في الدَّوْحَة حديثًا.

إذا حَلَلْتَ بها فحَدِّث عنها ولَا حرَج مِن بين الجامعات الأخرى التي شاهدناها على طريق التلفزة أو الصحافة للدول العربية، ولَا نَتعدَّاهَا حيث نقَع في المبالغة والإطراء المذموم. زُرْهَا وطُفْ بها ومِن حولها والحي الإداري بالخصوص، ثم بعد ذلك ناقِش الموضوع.

(١١) تابع: الجامعة:

لعلَّ أَيُّهَا القارئ لهذه الأسطر عن الجامعة في قسنطينة أَنَّها مبالغة، قد يكونُ ذلك. وقد يقول القائل: إِنَّ جامعة الجزائر أكبر مِمَّا ذكر، أو جامعة قسنطينة بالنِّسبة للجامعة الكبرى في الجزائر بمثابة ثانوية أو كُلِّيَّة مِن الكُلِّيَّات. أُجِيبُ وأنا مع القارئ أقول: نعم، وأكثر مِن نعم. إِنَّمَا وصفي لجامعة قسنطينة في فَنِّ الشَّكل الهندسي والإبداع. تَصَوَّر معِي أيُّهَا القارئ منطقةَ أقسام طُلَّاب الجامعة فقط، وندع المناطق الأخرى والأجنحة المركزية الأَخَّاذَة لِمشاهدة العيان. إِنَّ هندسة أقسام الدِّراسة حديثةٌ بالنِّسبةِ إِلَيَّ، لذا أَطلُبُ المَعذرة في العَرض السَّابِق.

أقسامُ الدِّراسة جُعِلَت وكَأَنَّها طائرةٌ طويلةُ الذَّيل، لَا يستطيع الناظِر مِثلِي أن يحدها في الطُّول، وكَأَنَّ الطائرةَ تُريد الاِنطلاق بِطُلَّابِهَا لِتُحَلِّقَ بِهِم في الجَوِّ، لِيَزدَادُوا مَعرفةً وثقافة. «يتبع»



نُصْرَةُ السَّلَفِيَّة

أو: قصيدة في الرَّدِّ على الشَّيخ الطاهر بن العبيدي

• الشَّيخ: محمد بن عبد الرحمن المَسْعَدِي

■ تَرجمةُ النَّاظم بِاختِصارٍ:

وُلد في ١٩١٢م -تقريبًا- في قرية «دَمَّد» بضاحِيَةِ مَدينة «مَسْعَدْ»؛ مِن مُدُن «الجلْفَة»، وأَصلُ أَبيهِ مِن أحواز «طنجَة»، مِن المغرب الأقصى، رُبِّيَ يتيمًا في حجر خالِهِ «عُمَر بن بلقاسم»، وكان مُعلِّمًا للقرآن في أحد الكتاتيب، وعليهِ تعلَّمَ القرآن، وأَتمَّ حفظهُ دون سِنِّ العاشرة، ثمَّ اشتغل بتعليم القرآن مساعِدًا لِخالِهِ، ثُمَّ لازمَ العلَّامة الشَّيخ عبد القادر بن إبراهيم، الذي حلَّ بِـ«مَسْعَدْ» وَ«الجَلْفَة» في مطلع الثلاثينات؛ ينشر العلم والإصلاح، فقرأ عليه وَانتفعَ به، ثم التحق بِقسنطينة وانخرط في تلامذة الجامع الأخضر سنة ١٩٣٨م، وتتلمذ على الأستاذ الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس، وبعد وفاة أستاذه في ١٩٤٠م، التحق بجامع الزيتونة في شهر سبتمبر مِن نفس السَّنَة، وفاز بشهادة التحصيل في سنة ١٩٤٥م، ثم عاد إلى أرض الوطَن وإلى مدينتِهِ «مَسْعَدْ»، وتصدى للوعظ والإرشادوالتعليم الحُرِّ في مدرسة الجَلْفَة (١٩٤٦م)، ثم مدرسة عين تِمُوشَنْتْ (١٩٤٧م)، ثم مدرسة المْغَيَّر(١٩٤٨م)، ثم مدرسة الجَلْفَة(١٩٥٠م)، ثم مدرسة الفلاح بوهران (١٩٥١م)، ولم يُطِل بها المُكث، لِيلتحق بمدرسة تيارت في السَّنة نفسِها:(١٩٥١م)، ثم مدرسة مَسْعَدْ (١٩٥٣م)، ثم مدرسة طُولْقَة(١٩٥٤م-١٩٥٦م)، لِيلتحِق بثورة التَّحرير المظفَّرَة اهـ.

■ قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الرحمن بن محمد بن رايس الدَّمَّدِي المَسْعَدِي الجزائري(ت ١٩٦٨م) رَحِمَهُ الله:

«قُلْتُ ردًّا على الشَّيخ الطاهر بن العبيدي[١] حينما قال قصيدتَهُ: «**إنْ تُرِدْ عِزَّةً وَفَضْلَ مَزِيَّهْ**»، التي يَنبز المصلحين فيها بأنَّهم جُهلاء وتاركون للصلاة

[١] هو أحدُ علماء سُوف، ولد سنة ١٨٨٦م، تخرَّجَ مِن جامع الزيتونة (١٩٠٤-١٩٠٧م)، تَولَّى الإمامةَ وَالتَّدريسَ في الجامع الكبير بِـ«تُقُرتْ» طيلةَ حياتِهِ تقريبًا- مِن ١٩٠٧م إلى وفاته-، له منظوماتٌ عديدة في فنون شتَّى، معظمُها في الفِقه؛ منها: منظومة في ستر العورة؛ قَرَّظها الشَّيخ الدِّيسي، والشَّيخ ابن باديس-في ١٣٣٧هـ= ١٩١٨م-، وَله «النَّصِيحَة العَزُّوزِيَّة في نُصرة الأولياء والصُّوفيَّة»-طُبِعت في مصر سنة ١٩٥٤م-؛ أشاد فيها بالطريقة الرحمانيَّة، وبفرعها زاوية نَفْطَة العَزُّوزِيَّة، وهاجم الشَّبيبَة الإصلاحيَّة.انظر: «تاريخ الجزائر الثقافي» لأبي القاسم سعد الله، (٧/ ٧٤ وَ٨٤-٨٥ وَ١٣٢-١٣٣) وَ(٨/ ١٠٠)، وَ«تجارب في الأدب والرِّحلة» لهُ أيضًا (ص١٠٠-١٠١).
تُوفِّيَ الشَّيخ الطَّاهر العبيدي في سنة ١٩٦٨م؛ في السَّنَة التي تُوفِّيَ فيها أيضًا صاحبُ الرَّدِّ عليهِ؛ (الشَّيخ محمد بن عبد الرحمن المَسْعَدِي)، بل تُوُفِّيَا في يومٍ واحدٍ!؛ هو: ٢٨ جانفي.

ومُنافقون.

ابتدأتُها حينما قال القصيدة، فقلْتُ عدة أبيات وتركتُها، ولمَّا طبعها ونشرها في السَّنوات الأخيرة رجلٌ مِن «أولاد جَلَّال» يَبيع الكتب اسمه...؟ وما أظنه طبعها إلَّا بِمَشُورة ناظِمها[١] أَتممتُ نظمَهَا، فقلتُ وَضمَّنتُ الشَّطر الأَوَّل مِن طالع قصيدتِهِ:

«إنْ تُـرِدْ عِـزَّةً وفضْـلَ مَزيَّـهْ»
فتَتَبَّـعْ طَريـقَ خَيْـرِ البَرِيَّـهْ
وَاعْتَصِـمْ بِالكِتَـابِ والسُّـنَّةِ الغَـرْ
رَاءِ تَسْـعَدْ وتَبْلُـغ الأمنيـهْ
وَانْبُـذْ مَـا سِـوَاهُمَا مِـن أَضَالِيـ
ـلَ وسُـبُلٍ تَشَـعَّبَت لِلبَلِيَّـهْ
كَـمْ رَأَيْنَـا لأهلِهـا مِـن هَنـاتٍ
فهـي حقًّـا واللـهِ شـيطانيَّهْ
رُؤُوا غيـرَ مَـرَّةٍ فـي دِيـارٍ
للمعاصـي وللخَنـا مَبنيَّـهْ
جاءَنَا المُرشِدُ ابنُ بَادِيسَ يَدْعُو النْـ
ـنَاسَ لِلحَـقِّ والطَّريـقِ السَّـويَّهْ
مَـعَ صَحْبِـهِ مِـن الهُـدَاةِ ذَوِي عِلْـ
ـمٍ وفَهْـمٍ وسِـيرَةٍ سَـلَفِيَّهْ
وَيَجْعَـلُ الكتـابَ والسُّـنَّةَ الغَـرْ
رَاءَ فَصْلاً عنـدَ اشـتِباك القَضيَّـهْ
وَأَقَاوِيـلَ قَالَهَـا السَّـلَفُ الصَّا
لِـحُ لا قـولَ مَـن يُريـدُ العَطِيَّـهْ
فَأَرَتْنَـا طَرِيقُهُـمْ وجَلَـتْ أَبْصَـا
رَنَـا مِـن غِشَـاوَةِ الجاهِلِيَّـهْ
أَرشَـدَتْنَا إِلَـى التَّعَبُّـدِ بالمَـأْ
ثُـورِ وهـو الطَّرِيقَـةُ المَرضيَّـهْ
لَا بِطَبْـلٍ ولَا بِرَقْـصٍ ولاسَـمْـ
ـعِ لأُغْنِيَـةٍ تَـرُوقُ شَـهِيَّهْ
لَـمْ يَصُـدُّوا عَـن طَاعَـةٍ لَا ولا ذِكْـ
ـرٍ ولَا عَـن عِبَـادَةٍ شَـرْعِيَّهْ
إِنَّمَـا أنكَـرُوا الَّـذِي لَـم يُؤَيِّـدْ
هُ كتـابٌ أو سُـنَّةٌ نَبَويَّـهْ
كَـذَبَ المُفْتَـرُونَ أَخْزَاهُـمُ الـ
لَاهُ فـلَا تَسـمعوا لدَعْـوَى فَرِيَّـهْ
عَجَبًـا للحَسُـودِ يُنْكِـرُ فضـلاً
وهـو بَـادٍ لَـهُ كشـمسٍ نَقِيَّـهْ
إِنَّ إِنْـكَارَ مـا فَشَـا مِـن ضَـلَالَا
تِ عـن القـومِ مَذهـبُ الأَكْثَرِيَّـهْ
فَانْظُـرْ إِنْ شِـئتَ حِلْيَـةَ الأَصْبَهَـا
نِي[٢] وما في الرِّسالَةِ القُشَرِيَّهْ[٣]
وكتابَ الفُرْقَانِ[٤] والمَدْخَلَ الحَا
جِّي[٥] ومَا فِيهِ مِن رُدُودٍ قَوِيَّهْ
وفتـاوى الأعـلامِ فـي كُلِّ عصـرٍ
فنَّـدَتْ أَصْـلَ هـذه الطُّرُقِيَّـهْ
وَأَتِنَـا اليـومَ إن صدقـتَ بمِثلِ الْـ
حَافِـي وابـنِ جُبَيْـرٍ والعَدَوِيَّـهْ
والإمـامِ الجُنَيْـدِ والحَسَـنِ البَصْرِيِّ
أُولِـي الزُّهْـدِ والنُّفُـوسِ الرَّضِيَّـهْ
لَـوْ رَأَى هـؤلاءِ أَشْـيَاخَكَ اليَـوْ
مَ علـى هـذهِ الخِـلَالِ البَذِيَّـهْ

[١] عـددُ أبياتها ٦٦ بيتًا، طُبعت في مصر سنة ١٣٧٣هـ=١٩٥٤م، مع منظومته الأخرى: «نصيحة الشَّبَاب المُزيحة للسُّحُب والضَّبَاب».

[٢] هو كتاب: «حِليَة الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ.

[٣] هي: «الرِّسالة القُشَيْرِيَّة» لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيريِّ، ت ٤٦٥هـ.

[٤] هـو كتاب: «الفُرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة ت ٧٢٨هـ.

[٥] هـو كتاب: «المَدخل» لمحمد بن محمد ابن الحاج العبدري الفاسي، ت ٧٣٧هـ.

ورأوا منهم خلائق تُزري
بذوي الفضل والنفوس الزَّكيَّة
مَعَ تأييدهم ونصرهمُ الكُفْـ
ـفار في كُلِّ موقفٍ وقضيَّة
ثُمَّ دَعْوَاهُم الوَلايَةَ زُورًا
مثل دعْوى ابن حَرْبٍ ابن سُمَيَّة
حَكَمُوا عنهم بكُفرٍ صراحٍ
بنُصُوصٍ من الكتاب جليَّة
ثُمَّ فرُّوا من بينهم وتنادَوا
إنَّنا منهُم بَراءٌ فهيَّه
أتُرى ما أتى شُيُوخُك في الأذْ
كار من هيْئةٍ ومن كيْفيَّة
قَدْ خفاه الرَّسولُ عن صَحْبِه أمْ
رغبوا عن عبادةٍ شرْعيَّة
وإذا ما زعمت أنَّك تدْعُو
هُ كمالاً وبدْعةً مَرْضيَّة
أتَرى في عبادة الصَّحْب نقصًا
وهُمُ المُقتفون خيرَ البريَّة
وكذا ما افترَوا عن الحسن البصْـ
ـريِّ من لُبْس الخرقة الصُّوفيَّة
مِن إمام الهُدى عليٍّ أبي السِّبطَيْـ
ـنِ ذي الفضل والمزايا العليَّة
وهُوَ لم يسْمع الإمامَ كما نصَّـ
ـتْ نُقُولٌ عليه غيرُ خفيَّة
فهي لا شكَّ بِدْعةٌ ما لها في الدْ
ـدِين أصلٌ بل هي دعْوى فريَّة
والحديثانِ في الصِّحاح[1] عليها
مثلُ شمس الضُّحى تلوحُ جليَّة

[1] يُشيرُ إلى ما رواه البخاريُّ (٢٦٩٧) ومُسلمٌ (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». وما رواه مسلمٌ (١٧١٨) عنها أيضًا: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

ونفى ابنُ الصَّلاح والعسقلاني
الَّذي قد زعمْتُمُو وابنُ دِحْيَة[2]
وإذا ما ادَّعيْتَ أنَّنا حطَطْنا
من خليلٍ وكُتبِنا الفِقْهيَّة[3]
ما ترى في الَّذي يقول صلاة الفتْـ
ـح تعْلُو كلامَ ربِّ البريَّة؟!
مُنكرٌ ظاهرٌ وزُورٌ يَصُدُّ النْـ
ـنَاسَ جهرًا عنْ آيه الأزليَّة
فتغاضيْتَ عن مقالةِ سُوءٍ
من يقُلْها يخسَرْ ويلْقَ الرَّزيَّة
لم يقُلْها قبلَ التِّجاني شيْخٌ
من شيوخ الطَّرائق الأوَّليَّة
أيُّها النَّاسُ إنَّ أقوال ذا الشَّا
عرِ تُنبي عنْ بُغضه السَّلفيَّة
ومُوالاته لِمن حارب اللا
ـهَ ترى أنَّه خبيثُ الطَّويَّة
يدَّعي العلمَ وحدَهُ حسدًا منْـ
ـهُ وعُجبًا شأنَ النُّفوس الدَّنيَّة
وأراد الجدالَ حين خلا الجوْ
وُ لكي يخدعَ العقولَ الغبيَّة
«وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ

[2] قال السَّخاوي (ت٩٠٢هـ) في «المقاصد الحَسَنة في بيان كثيرٍ من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» (ص٣٣٥): «حديث لُبْس الخِرْقَة الصُّوفيَّة وكَون الحسَن البصري لَبِسَها من عليٍّ، قال ابنُ دحية وابنُ الصلاح: إنه باطلٌ. وكذا قال شيخُنا -يعني: ابن حجر العسقلاني- إنه ليس في شيء من طُرقها ما يثبت، ولم يَرِد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَلْبَسَ الخِرْقَةَ على الصورة المتعارفة بين الصُّوفيَّة لأحد من أصحابه، ولَا أَمَرَ أحدًا من أصحابه بفعل ذلك، وكلُّ ما يُروى في ذلك صريحًا باطل...» اهـ.

[3] يُشيرُ إلى قول العبيدي:

كُلُّهُم يَدَّعِي اجْتِهَادًا وَلَا تَرْ ضيه إِلَّا مَجَلَّةٌ شَرْقِيَّهْ
وَيُحَطُّونَ مِنْ خَلِيلٍ وَشُرَّا حِ عَلَيْهِ وَكُتْبُنَا الأَوَّلِيَّهْ

21

طَلَبَ الطَّعْنَ وحدَهُ» في البَرِيَّهْ
يوْمَ حلَّ «البَشِيرُ» «تُقُرْتَ»[٤] يَدْ
عُوهَا لِتَكوِينِ نَهْضَةٍ قوِيَّهْ
لِمَ لَمْ يأتِهِ وقَد قَالَ قِدْمًا
قَوْلَةً سَاءَتِ القُلُوبَ النَّقِيَّهْ
«وَنَاظِرُوهُم إنْ شِئْتُمُ في أُصولٍ
أو فُرُوعٍ أَوْ جُمْلَةٍ نحوِيَّهْ»[٥]
فَرَمَى جَمْعِيَّتَنَا بِأَكَاذِيبَ
ورَمْيُ البَرِيءِ شَرُّ الخَطِيَّهْ
يَنْبِزُ المُصلِحِينَ زُورًا وبُهْـ
ـتَانًا بِتَرْكِ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّهْ
وبِقَوْمٍ مُنافِقِينَ أَضَلُّوا
ثُمَّ ضَلُّوا عنِ الطَّرِيقِ السَّوِيَّهْ
أيُّهَا الشَّاعِرُ المُعَانِدُ مَهْلاً
لَا تُكَابِرْ فإنَّنَا بالثَّنِيَّهْ
لَم نُنافِقْ ولَم نَضِلَّ ولَمْ نُضْـ
ـلِلْ ومَا ضَلَّ قَبلَنَا «التَّيْمِيَّهْ»[٦]
إنَّمَا نَنْصَحُ الَّذِينَ أزَغْتُم
بِضُرُوبِ العقائِدِ الشِّرْكِيَّهْ
ونَصَبْتُم نُفُوسَكُم شُفَعَاءَ
لَهُم في المَوَاقِفِ الأُخْرَوِيَّهْ
فَدَعَونَاهُم إلى اللهِ حتَّى
رجعوا للعقائدِ السَّلَفِيَّهْ
إنْ ذَهَبْنَا للمساجد لَمْ نَذْ
هَبْ إليها لأُجْرَةٍ شَهْرِيَّهْ
والَّذِي شُيِّدَ من مساجد في القُطْـ
ـرِ ومِن جمعيَّاتِنَا الخَيْرِيَّهْ
ونُفُورِ الشَّبابِ للعِلْمِ تَحْدُو
هُ المُنَى والشُّعُورُ بِالقَوْمِيَّهْ
آنِفًا أنْ تُعَابَ أُمَّتُنا بالجهلِ
وهي الَّتِي لها الأَسْبَقِيَّهْ
هَذِهِ كلُّها دَلَائِلُ لَا يُنْـ
ـكِرُها إلاَّ حاسِدٌ ذُو دَنِيَّهْ
أيُّهَا المُؤمِنُ الكريمُ تنبَّهْ!
ثُمَّ مَيِّزْ تَلْقَ الأُمُورَ جلِيَّهْ
أيُّ فَرقٍ بينَ البهائِمِ والإِنْسَا
نِ إن لَم يُميِّزْ وأيُّ مَزِيَّهْ!
اسْتَمِعْ نُصحَ مَن يُرِيدُ لكَ الخَيْـ
ـرَ ولا تتبعِ النُّفُوسَ الشَّقِيَّهْ
وَانبُذِ المُفْسِدِينَ تَسْلَمْ ولَا تَتْـ
ـبَعْ دَعِيًّا في رَأْيِهِ أو دَعِيَّهْ
وَاتبعِ المُصْلِحِينَ وأَخْلِصْ إلى الْـ
لَاهِ تَفُزْ بالسَّعادَةِ الأُخْرَوِيَّهْ
رَبَّنَا آتِنا رِضاكَ ووفِّقنا إلى الْـ
ـخَيْرِ يا جَلِيلَ العَطِيَّهْ
وَأَنِلْهَا نبيَّنَا المصطفَى الخا
تَمَ لِلأَنْبِيَاءِ شَفِيعَ البَرِيَّهْ

أَتممتُ نظمَها وأنا أُعَلِّمُ بـ«طُولْقَة» سنة ١٩٥٤م، وقد اطَّلعَ عليها الشَّيخ النُّعَيمِي[٧] وأَعجبَتْهُ» اهـ[٨].

[٤] هو (فَخْرُ عُلماء الجزائِر) الشَّيخ محمَّد البشير الإِبراهيمي -رئيس «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»-؛ زارَ «تُقُرْت» -مَقَرَّ إقامَة الشَّاعِر؛ الشَّيخ الطاهر العبيدي- في مطلع الخمسينيَّات.

[٥] هو بيتٌ مِن منظومة العبيدي.

[٦] يُشيرُ إلى قول العبيدي:

هَذِهِ فِرْقَةٌ أضَلَّتْ وَضَلَّتْ   شَقِيَتْ مِنْ أَهْوَائِهَا النَّفْسِيَّهْ

وقوله:

وَعَلَى الأَوْلِيَاءِ تُثْنِي أُلُوفُ الْـ   ـكُتْبِ إلَّا جَمَاعَةٌ تَيْمِيَّهْ

والشَّاعِر يعني: جماعةَ السَّلَفِيِّين؛ نَسَبَهُم إلى الشَّيخ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ.

[٧] هُو الشَّيخ نَعِيم النُّعَيمِي، انتُخِب عضوًا في المجلس الإداري لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين في سنة ١٩٥١م، تُوفِّي في سنة ١٩٧٣م، وهُو مِنَ الأُدَبَاء المُتمَكِّنِين في شِعر الرَّجَز، ولهُ فيهِ أنظامٌ.

[٨] «مِن آثار الشَّيخ محمد بن عبد الرحمن الأدبية الشِّعرية والنَّثرية»، جمعها وعلق عليها: أ. سالم علوي، ص٤٦-٥٠)، ط. دار هومة، الجزائر.

وَهْرَان الإسلاميَّة

في النصف الثاني مِن القرن التاسع الهجري

* هذه مقتطفاتٌ مِن رحلة الشَّيخ عبد الباسط بن خليل القاهري الحنَفي (ت ٩٢٠هـ) إلى بلاد المغرب، وشَيءٌ مِن مشاهداته في مدينة «وهران»؛ التي كانت حِينها تابعةً لِمملكة تلمسان الزيانية العبد وَادِية-وكان سلطانها إذ ذاك: محمد بن أبي ثابت، أقام الشَّيخ عبد الباسط بها في النصف الثاني مِن القرن التاسع الهجري، دخلها في: يوم الثلاثاء ٢٧ صفر مِن سنة ٨٦٩هـ ، وخرَج منها في: ربيع الأول ٨٧١هـ ، وهِي مُسْتَلَّةٌ مِن كتابِه: «الرَّوض الباسِم في حوادث العمر والتراجم»، بتحقيق: د. عمر عبد السَّلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ج٣، (ص٣٧ وَ٥١ وَ٦٣ وَ١٣١ وَ١٨٩ وَ١٩٠):

«وفيهِ [شهر صفر ٨٦٩هـ]، في يوم الاثنين سادس عشرينه قصدت واهران فدخلتُها في سابع عشرينه آخر النهار، ثم [زرتُ الشَّيخ عبد الرحمن بن عزوز]؛ إمام زاوية سيدي إبراهيم التازي الماضي ذِكرُه وذِكرُ زاويته، (...) الشَّيخ الإمام العالم الكامل سيدي أبو العباس أحمد بن العباس المالكي، مفتي واهران[١] (...) وهما مِن كبار أهل العلم والفضل بهذه البلدة فاستفدتُ (....) الكثير من (....) منهما(....)[٢].

وفيه أعني شهر رمضان هذا [٨٦٩هـ]، خرجتُ متوجهًا من واهران لتلمسان، فدخلتُها في اليوم السابع والعشرين منه....

ولقد كنتُ في عودتي لتلمسان هذه المدة عزمت على التوجه منها لِجهةِ فاس لأراها، فلما بلغني ما وقع بها مِن هذه الفتن والخَطْب، فَتَرَ عزمي عن ذلك. فعدتُ إلى واهران بشيء تسوَّقتُهُ من تلمسان لأجل بيعه بالأندلس. وعزمتُ على التعدية والجواز من بَرِّ العَدْوَة لِبَرِّ الأندلس.

وفيه [شهر ذي الحجة ٨٦٩هـ]، كان عيد النحر بالقاهرة بالسبت، وكان عندنا بواهران بالجمعة، وخرجنا لمُصلى واهران بِظاهرِها، وكانت الأضحية بها في غاية الرخاء، فأبيع بها كل أربعة من جياد الغنم بدينار.....

وفيهِ [شهر ربيع الآخر ٨٧٠هـ]، في يوم نصفه، سافرتُ في البحر الملِح إلى بلاد الأندلس في مركب كبير للجنويِّين مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان وواهران وغيرهم، وأقامت أُمُّ ولدي بمنزل الشيخ الإمام العالم الفاضل الصالح العابد الزاهد سيدي أبي عبد الله المعروف بابن القصار التلمساني خطيب جامع البيطار بوهران، وأحد أعيان أصحاب سيدنا الشيخ الولي العارف بالله سيدي إبراهيم التازي... فخلَفَنا سيدي محمد

[١] هو أحمد بن العباس بن محمد بن أبي هذيل الوهراني؛ شارح لامية الأفعال في الصرف.

[٢] فراغ في الأصل. وَالظاهر أنَّهُ يَتكلَّم عن العلماء الذين لَقِيَهُم.

المذكور في أهلنا خلفًا جميلاً، جزاه الله تعالى عنا خير الجزاء، ورحمه رحمة واسعة، فإنه ورد علينا بعد هذا التاريخ للقاهرة حاجًّا في سنة أربع وسبعين [٨٧٤هـ]، وتوجه إلى مكة المشرفة، فأقام مجاورًا بها، ومات في سنة ست وسبعين [٨٧٦هـ]....

وفيها استهل رجب [٨٧٠هـ] بالاثنين، ففيهِ، في هذا اليوم، ركبنا البحر عائدين إلى واهران فدخلتُها في رابع رجب هذا، وعزمتُ على السفر في البحر في المركب التي ركبنا بها والتوجه فيها إلى جهة تونس، ثم رأيتُ آثار الضعف باقية بي، وأشار عليَّ بعضُ خُلَّص أصحابي بالإقامة حتى تقوى البنية وتشتد القوة، فأقمنا بها على عادتنا....

وفيهِ [شعبان ٨٧٠هـ]، في أواخره، ونحن بواهران ظهرت أربعة مراكب للفرنج من جهة المغرب، ففزع أهل النواحي بخارج واهران إليها، بل وأُرجف بواهران أن هذه المراكب مشحونة بالمقاتِلة، وأنهم قصدوا أذى المسلمين، ثم اجتازت تلك المراكب ولم تعرج لجهة واهران ولا سواحلها، وسلَّم الله تعالى. ثم بلغنا الخبر بأنها أخافت السُّبُل بنواحي بِجَايَا، وأخذت المارة، وأَسَرَت الكثير من المسلمين....

وفيهِ [شهر صفر ٨٧١هـ]، في يوم تاسع عشرينه، ورد إلى ساحل مدينة واهران شونة عظيمة من مراكب الفرنج الجنويِّين برسم الاتجار في الجوخ، وكانت وردت من المحيط من بلاد افلنده، ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط، وتجهز كثير من تجار واهران وتلمسان للسفر فيها إلى جهة بلاد تونس. وتجهَّزتُ أنا أيضًا لذلك وعزمتُ على العَود لهذه البلاد [يعني: القاهرة] بعد دخول تونس وغيرها من البلاد....

وفيه [شهر ربيع الأول ٨٧١هـ] في حادي عشره، ركبتُ في البحر الملح في الشونية الماضي ذكرُها، وأقلعنا إلى جهة تونس»اهـ.

